

دراسة الدور الحضاري للمرأة الأندلسية

ونقد كيفية انعكاسه في المقامات

(دراسة مقامات السرقسطي والوهبراني والأزدي، نموذجاً)

سيد حسن فاتحي*

علي باقر طاهري نيا**، بي بي راحيل سين سيلبي***

الملخص

المقامة فنّ؛ نشأت بالمشرق على يدي «بديع الزمان الهمذاني»، و «الحريري». لقي هذا الفنّ قبولاً من جانب كتّاب الأندلسيين، ونسجت على منوالها مقامة «السرقسطي» و«الوهبراني» و«الأزدي». والأدب كمرآة تعكس الحياة الاجتماعية والفكرية لذلك العصر. لكنّ المقامات المذكورة لا تعكس الدور الحقيقي والأدوار التي ساهمت بها المرأة الأندلسية في تلك الفترة، بل تعطي للمرأة دوراً سلبيّاً وهامشيّاً، مع أنّها كانت ذات نصيب وافر من الأدب ونالت جانباً من التعليم؛ ممّا مكّنها من رفد الحياة الثقافية في الأندلس. تعتمد هذه المقالة على المنهج الوصفيّ — التحليليّ والنتائج تدلّ على أنّ المرأة كانت أكثر ظهوراً في مقامات السرقسطي بالنسبة للمقامتين الأخريين، وصور الأزدي في مقامته، تصويراً لا يدلّ على التبجيل والإكرام للمرأة، و فقط في مقامة «شمس الخلافة»

* أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلی سینا، همذان (الكاتب المسؤول) Shfatehi43@gmail.com

** أستاذ في اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران btaheriniya@ut.ac.ir

*** طالبة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلی سینا، همذان brsensebli@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٥/١٩، تاريخ القبول: ١٣٩٣/٨/٢

للوهرائي نرى المرأة في موقعها الحقيقية. وهذه الكراهية للنساء يمكن أن يرجع إلى عدّة أسباب منها: ١. أسباب عقائدية؛ لأنّ كتاب المقامات كانوا يصوّرون العقائد الرائجة لا العقائد الحقيقية حول المرأة، ٢. عصبية الرجال، بحيث كان للرجال، الخطاب السائد، ٣. أسباب اجتماعية مثل التحضّر وكثرة الجوّاري، ٤. أسباب ثقافية مثل اتّصال العرب الأندلسيين بالأجانب وإطلاعهم على القصص الأجنبية التي تحكى عن خدع النساء.

الكلمات الرئيسية: المرأة الأندلسية، المقامات الأندلسية، مقامات السرقسطي والوهرائي والأزدي.

١. المقدمة

تدور غالبية الآراء على أنّ الحياة الاجتماعية مرتبطة إلى حدّ كبير بالحياة الأدبية بل أنّ الحياة الاجتماعية تنعكس في أدب العصر وتتفاعل معه وكذلك الأديب الذي يعيش فيه قد يتأثر تأثراً شديداً بالحياة حوله. والمقامات من الفنون الأدبية التي ظهرت في أواخر القرن الرابع، وهي حكاية أدبية أسلوبها سجع، لها بطلٌ وراويٌ وأكثرها يدور على الاحتيال لكسب المال، وفيها تصوير للجوانب الاجتماعية والنفسية والأخلاقية. وأوّل من ابتدع شكلها الفنّي وأعطاهها ملامحاً خاصّة هو «بديع الزمان الهمذاني» (٣٩٥-٥٣٥٨.ق) وتبعه «الحريري» (٥١٦-٥٤٤٦.ق). فاستقبلها الأدب العربي وانتشرت في المشرق ومنه إلى الأندلس عن طريق طلب العلم الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق. ومن أهمّ المقاميين الأندلسيين «السرقسطي» و«الوهرائي» و«الأزدي» وإلخ. وقد صوّر لنا كتاب المقامات المذكورة، الحياة الاجتماعية للعرب في الأندلس. لكنّهم لم يصوروا كلّ الحقائق ويلاحظ أنّ الدور النسويّ لم يظهر بصورة جليّة في الأدب الأندلسي. لأنّ «المرأة تمتعت في المجتمع الأندلسي، بنصيب وافر من الحرّيّة ونالت جانباً من التعليم، مما مكّنها من رفق الحياة الثقافية في الأندلس بإسهامات جديدة سواء في المجالات الدينية أو التعليمية والأدبية» (حمزة عباس، ٢٠٠٥: ١٥٩) وهذا الفردوس المفقود (الأندلس) قد شهدت جمهرة من

النساء الشاعرات اللائي أبدعن شعرا، كالرجال طوال إمارات الأندلس مثل: ولادة بنت المستكفي بالله وعلية بنت مهدي وبثينة بنت المعتمد بن عباد وغيرهن من الشاعرات.

٢. ضرورة البحث

على رغم الدراسات التي تناولت المقامات، فهي بالحاجة إلى المزيد من الاهتمام. فثمة كم هائل من الموضوعات التي مازالت تنتظر سر أغوارها مثل دراسة دور المرأة في الأندلس ولاسيما دراسة مكانة المرأة الأندلسية في المقامات وإجراء بحث نقدي عن أسباب كراهية للنساء فيها.

٣. أسئلة البحث

- ما دور المرأة ورسالتها في المجتمع الأندلسي؟
- وكيف انعكس دورها في المقامات الأندلسية؟

٤. خلفية البحث

ظهرت كتب ومقالات حول النشر الأندلسي، خاصة المقامات. نستطيع أن نشير إلى كتاب المقامة لشوقي ضيف، بديع الزمان الهمداني لمارون عبود وبديعات الزمان لفكتور الكيك، ملامح التجديد في النشر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، لمصطفى محمد أحمد علي السيوفي، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغشيف، المقامات اللزومية، تحقيق: حسن الوراكلي وعبدالمملك السعدي، «بديع الزمان همداني ومقامات نويسي» من علي رضا ذكاوتي قراقزولو. ومن المقالات إلى «مقامات سرقسطي»، لعللي رضا ذكاوتي قراقزولو، «المقامات اللزومية للسرقسطي وقيمتها الفنية» لمحمد عبد العظيم، «الإيقاع في المقامات اللزومية»، لبرنادو أتشاغنا، «مدخل إلى تحليل

٩٠ دراسة الدور الحضاري للمرأة الأندلسية ونقد كفيّة انعكاسه في المقامات ...

المقامات اللزومية» لمحمد الهادي الطرابلسي، «المقامات اللزومية لأبي الطاهر السرقسطي وصدور ترجمة لها باللغة الإسبانية» لإكناثيو فيراندو، «مقامة العيد لأبي محمد عبدالله الأزدي» لأحمد مختار العبادي.

دراسات حول المرأة الأندلسية: «الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية»، لسعد بوفلاقة، «الشعر النسوي في الأندلس»، لمحمد منتصر الريسوني ومقالات: «صور من إسهامات المرأة الأندلسية في الحياة الثقافية في عصر ملوك الطوائف»، لفائزة حمزة عباس و«ملاحم صورة المرأة في المقامات الهمداني والحريري» لأفنان النجار وفاطمة العمري و«دور المرأة في الأدب الأندلسي، خاصة دراسة ولادة بنت المستكفي» لفاطمة قادري وإلخ.

٥. الحياة الاجتماعية في الأندلس ومكانة المرأة الأندلسية

قبل أن نتطرق إلى دور المرأة في المقامات، علينا أن ننظر إلى الأدب برؤية اجتماعية. فهناك أسباب عديدة ساعدت على ازدهار الحركة الاجتماعية العلمية والأدبية في الأندلس أهمها: «١. دعوة العلماء المشاركة إلى الأندلس للإفادة من علمهم وأدبهم، ٢. رحلة بعض الأندلسيين إلى المشرق، ممن نصبوا أنفسهم لتحصيل علم من علوم المشاركة والتبحر فيه، ثم العودة إلى الأندلس لنشر ذلك العلم بين أهله، ٣. جمع الكتب وإقامة المكتبات العامة كى يؤمها الدارسون والباحثون، ٤. إهتمام الأمراء والخلفاء الأندلسيين بالعلم والعلماء والتناسف في تقريهم، إذ إنهم لم يستوزروا إلا من كان أدبيا أو شاعرا أو عالما» (طاهري نيا، ٢٠١٢: ١١٩).

«الأوضاع السياسية للأندلس تعدد، فضلا عن أن تأثير التطور العلمي والثقافي، من العوامل البارزة لدور المرأة الأندلسية التي اتضحت أبعادها من خلال إسهاماتها في المجال الثقافي. ففي إطار هذه النهضة الفكرية تبوّأت المرأة، مكانتها في المجتمع الأندلسي وتمتعت بنصيب وافر من الحرية؛ مكنتها من الإسهام في كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية والثقافية، فأصبح لها رأي واضح. فمكانة المرأة الأندلسية جاءت نتيجة

لظروف وعوامل محيطة بها، واهتمام المجتمع الأندلسي بتعليم المرأة وتأديبها، ورغبة المرأة في هذا العصر في التعليم وطلب العلم وتولّي الأسرة مهمّة تعليم الفتيات. وحتىّ إنّ الجوّاري الأندلسيات نلن في ذلك العصر حظاً من التعليم. لأنّ غاية المنى كانت جارية أندلسية متأدبة ويبدو أنّ الجوّاري كُنّ يتلقينّ تعليمهنّ على يد مولاهنّ وظهّر أنّ بعضهنّ فاقت مولاها في كثير مما أخذته عنه» (حمزة عباس، ٢٠٠٥: ١٦٣). «كما أسهمت المرأة الأندلسية في رقد العلوم الدينية مثل تلاوة القرآن الكريم وتفسير آياته وكتابة المصحف الشريف، وظهّر أنّ المجال الأدبي هو المجال الواسع الذي برزت فيه المرأة وخاصة في نظم الشعر وروايته» (المصدر نفسه: ١٦٧). «وارتفع صوتها الأدبي، فعبّرت عن مشاعرها بصراحة تامّة وعقدت المجالس مع شعراء عصرها وبدأت تشارك في إثراء الأدب الأندلسي بألوان شعرية طريفة، واستطاعت أن تقف إلى جانب الرجل في الحركة الشعرية الفنيّة» (القضاة، ١٩٩٤: ٢١). «وإذا بالمشرق العربي حفل بعدد من الشاعرات المتميّزات أمثال: الخنساء، ليلي الأحيلى، عليّة بنت المهدي وإلخ. إلّا أنّ الشاعرات الأندلسيات فاق عددهنّ الشاعرات المشرقيات من أمثال: حسانة التميميّة، عائشة القرطبيّة، حفصة بنت حمدون الحجارّيّة، أمّ الكرام بنت المعتصم بن صمّادح، ولّادة بنت المستكفي، العباديّة جارية المعتضد، أسماء العامريّة، هند جارية عبدالله بن ملقة الشاطبي وإلخ» (بوفلاحة، ٢٠٠٣: ٤٢).

لهذه الأسباب تمتعت المرأة في المجتمع الأندلسي بقسط وفير من الحرّيّة والنفوذ لم تعرف بغداد في أوج ازدهارها، وذلك يرجع إلى سببين: «أولهما احتكاك المرأة بالشعوب الأوربية التي أثّرت في المجتمع العربي الناشئ ببعض خصائصها، عندما قويت الصلات بين العرب ونصارى الأندلس بحكم المصاهرة أو المجاورة أو التحالف أو غير ذلك، وثانيهما: إختلاط عرب المجتمع الأندلسي بالبربر وهم سكّان شمالي إفريقيا القدامى، وكانت للمرأة في مجتمعاتهم مكانة، تختلف عن مكانتها في المجتمع العربي، فإتخذ الحاميون، الأمّ رأس الأسرة، ينتسبون إليها وليس إلى الأب. فوضعوا المرأة في المكان الأوّل في المجتمع»^١ (المصدر نفسه: ٢٦/٣).

٦. المقامات في النتاج الأندلسي

تضافرت الجهود الأندلسية في سبيل ألبعيش الأندلسيون بمعزل عن الثقافة المشرقية ومن ثم كان التقارب الفكري والثقافي بين الأندلس والمشرق العربي ثمرة لهذا الالتقاء وأثراً من آثار الرحلة بين الإقليمين (السيوفي، ١٩٨٥: ٦١). من الثابت أن المقامات، دخلت إلى الأندلس في أواخر القرن الرابع وكان من أول المتذوقين لها الناسجين على منوالها «ابن شهيد» (٣٨٢-٥٤٢٦ ق) وتتابع السبيل فإذا «بعبد الوهاب بن مغيرة بن الحزم» (توفي: ٥٤٢٠ ق) و«ابن شرف القيرواني» (٣٩٠-٥٤٦٠ ق) على أن مقامات بديع الزمان، لم تحظ بما صارت إليه مقامات الحريري من تمكّن في النفوس الأندلسيين، فاتجهوا إليها دراسة، رواية و تم معارضة (المصدر نفسه: ٢٧٨، ٢٧٩). ومن أشهر من تأثر بمقامات الحريري من أدباء الأندلس؛ «أبو الطاهر محمد التميمي السرقسطي». وقد عرفت بـ«المقامات السرقسطة». وألاديب «محارب بن محمد الوادي آشي» (القرن السادس) وضع مقامة في مدح «القاضي عياض بن موسى السبي»، و«الحسن بن علي البطليوسي» (ت ٥٥٦٦ ق) و«أبو الحجاج يوسف القضاعي» (ت ٥٥٤٢ ق) (عبدالكريم، ٥١٤٢٢: ٢٤٣) وكتاب أخرى: كـ«محمد بن محرز محمد الوهراني» (ت ٥٥٧٥ ق) و«لسان الدين بن خطيب» (٧١٣-٥٧٧٦ ق) و«أبو محمد عبدالله الأزدي» (ت ٥٧٥٠ ق) و«ابن إيوحاتم عاملي» (ت ٥٨١٥ ق) و«أبو عمر الزجال» (ت ٥٨٤٤ ق) وإلخ (ذكاوتي قراقولو، ١٣٦٤: ٨٠، ٨١). وألان نتطرق إلى تعريف المقامات للسرقسطي والوهراني والأزدي ونقوم بدراسة دور المرأة فيها.

١.٦ المقامات اللزومية للسرقسطي

في إطار المعارضات لمقامة الحريري نلتقي بمقامة سرقسطي. «هو أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الأشركوني^٢. ويبدو إنه نشأ في «سرقسطة» ولذلك نُسب إليها وقيل إنه من أهلها. وأكبر الظن إنه بارح سرقسطة مبكراً للقاء الشيوخ الناهجين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم إنه أخذ عن «ابن السيد البطليوسي» ببلنسية وعن «أبي

بكر بن العربي» باشبيلية وعن «أبي علي الصديقي» بمرسية سنة ٥٠٨ واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة ونوّهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم «ابن مضاء» صاحب «الردّ على النحاة». ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطي وذكرت أنّه توفي بقرطبة سنة ٨٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب «المسلسل في غريب لغة العرب» و«مقاماته اللزومية»؛ أروع آثاره ومن أروع ما قدّمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية» (ضيف، ١٩٨٩: ٥٢٢؛ دائرة المعارف بزرگ الاسلامي، ١٣٧٤: ٣/١٥).

شخصيات المقامات: هناك الشخصيتان الرئيستان في مقامات السرقسطي، هما: «السائب ابن تمام» و«الشيخ أبو حبيب»، وهو رجل مُحْتال، أصله من بلد عُمان وأحياناً يُذكر شخص آخر وهو «المنذر بن همام» راوي المقامات. وأيضاً يورد في بعض المقامات فتيان هما ابنا الشيخ واسمهما «حبيب» و«غريب». ومن بعض خصائصها: هي امتزاجها بالثر والشعر واشتمالها على نواح نقدية مهمّة مثل النقد الأدبي والاجتماعي في تلك الظروف.

عدد المقامات: هي خمسون مقامة، عارض بها السرقسطي مقامات الحريري وتأثر في طبيعة سجعها. كما يوحى اسمها — بطريقة أبي العلاء المعري إذ بناها على لزوم ما لا يلزم. لا تحمل كلّ واحدة من المقامات اسماً علماً كما فعل الحريري ومن قبله البديع، وإنما سُمّي بعضها ك«البحرية» وسُمّيت ثلاث منها بنوع السجع السائد فيها. فواحدة تسمّى «المثلثة» لإثبات بُنيّة على ثلاث سجعات، وأخرى تسمّى «المرصعة» لتقابل عبارتها في سجتين، وثالثة تسمّى «المدبجة» لتقابل كلّ عبارتين منها في ثلاث سجعات. أمّا المقامات الأخرى التي جعلت لها عناوين ك«الحمقاء» و«مقامة الشعراء» و«مقامة الدب» والتي تليها هي مقامة «الفرسية» ومقامة «الحمامة» والمقامة «العنقاوية» والمقامة «الأسدية». إذا استنتت المقامتان الثلاثون والخمسون^٣ يتضح أنّ العقدة في أكثر المقامات الأخرى تقوم على تنكّر الشيخ المحتال وعلى مهارته في الوعظ، ووعظه غالباً تذكير بالآخرة والموت، ثم انكشاف حال الشيخ للسائب بن تمام. وكثيراً ما يفرّ هذا الشيخ بعد أن يفوز بما يريد، لكنّه في كلّ مرة يترك رقعة فيها شعر يشرح فيه حاله وحيلّه (عبّاس، د.ت: ٣١٧-٣٢٠).

١.١.٦ مظاهر حضور المرأة في المقامة اللزومية

١.١.١.٦ أوصاف النساء

اعتنى السرقسطي في بعض المواضع بوصف جسم المرأة عامةً والجارية خاصةً أو يصف أخلاق المرأة ايجابيةً كانت أو سلبيةً.

الصفحة	الصفات	صفات النساء	
١٨	ناهد الثدي	فلقد فتنت الكواعب	الاجبائية
٣٤	حسنة وذو عينين كبيرة	أزمان سلمى وما سليمى حسنة مثل المهابة روذ	
٦٠	ذو الخال وصاحبة الجمال	فبادرته ذوات خيلان كالمها والغزلان	
٨٥	بيضاء الوجه	والغرر تعرض إلى من محاسنها	
١٢٢	رائعة الجمال، باهرة الكمال	فأني عرضت أليوم جارية رائعة الجمال، باهرة الكمال	
١٢٢	هيفاء	إلى أن هدأ ثماسها (نفاها) ... فإذا خصر بتيل (دقيق) وعطف مياس	
١٣٠	المرأة هي مؤنسة الرجل	يتمتع بصنجه وربابه و يأنس بزنبه و ربابه	
٢٠٠	شدة بياضها وبريق وجهها	قينة (أمة) كالشمس	
٢٠٠	فصاحة الكلام	قينة تنطق عن فصاحة سحبان، بلفظ رخييم الحواشي	
٢٧١	جمال الوجه وفصاحة الكلام	الخنساء: تماضر ما تماضر، وجهه من الاحسان ناضر. باد من الفصاحة، ورقاء صادحة	
٣١٤	العفة	نفذ الدهر اغصانه وسلبه حصانه	السلبية
٣٢٦	المرأة رقيقة اليدين، حاذقة بالعمل	عين كمرأة الصنّاع، يديرها بمحجرها من القناع	
٤٤	ذات الحجال: النساء. والخرق: الجهل والحُمق	ما العجز و الخرق الّا من خرق ذات الحجال	
٨٧	المرأة العاصية لزوجها	لما حلت في بغداد، لم ازل أتعرض كاعبها وعروبها	
١٢٣	التكبر	من لسان جارية: أنا بنت السهي فمّن رام نيلي رام ردّ الصبا سبق الظلال	

٢٠٢	كثرة النوم	نَمَ نومة العروس ولا تَنَحَش من عضوض وضروس
٢٧٠	عدم الوفاء	ملكْت عَزَّة (صاحبة كثير) زمامه وما حفظت ذمامه
٢٧١	خدعة	نَمَّ ليلي (الاحيلية) ما ليلي حسبك من خادعة حجاج من القول والفجاج
٣٠٦	قلة الولد	هو ابن مقلاتٍ نزر

٢.١.١.٦ ألبسة النساء

«وكم قد رمى من معشرٍ فمزقَ بالبغيِّ جَلِبَابِهَا». والجلباب: هو الثوب الذي تلبسه المرأة فوق ثيابها فوق الخمار (السرقسطي، ٢٠٠٦: ٤٨). «والعُرْرُ تتعرضُ إليّ من محاسنها والحجول، إذ أنا بسرب نساء يتخايلن بين مِرْطٍ وكَسَاءٍ» والمِرْط: هي أكسية من الصوف أو خزّ كان ويؤتزر بها (المصدر نفسه: ٨٧). «بعد لأي سَكَنَ شِماسُهَا فحطّت من ذلك القِنَاع» والقِنَاع: ما تُغطّي به المرأة رأسها (المصدر نفسه: ١٨٩). «ألا أن تَلْتَهُ صَفراء المَحَاجِر، يَبِيضاء المَعَاجِر» والمعجّر، ثوب أصغر من الرداء والمقنعة (المصدر نفسه: ١٩٠).

٣.١.١.٦ أدوات الزينة للنساء

«والعُرْرُ تتعرضُ إليّ من محاسنها والحُجُول»؛ «لقد أتى الزمانُ بعجبه فعوّضَ من الرأس بالرجل ومن التاج بالحِجَل» و«الحجل هو الخلخال» (المصدر نفسه: ٢٦، ٨٧). «لَمَحَنًا بدر السماوة وقد إنعطف إنعطاف السوار أو حنّية الأسوار» والأسوار: الحلية التي تلبس في المعصم (المصدر نفسه: ٢٩٣). يبذل الشيخ سائب بن تمام إلى جارية أمواله «فتخيّرت منها رداءً ومِرْطاً وشَتْنَفاً وقُرْطاً» و الشَتْنَف: ما تلبسه المرأة في أعلى الأذن، والقُرْطُ: ما يُعلّق في شَحْمَةِ الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها (المصدر نفسه: ٩٢).

٤.١.١.٦ التحذير من النساء

يُحذِرُ السَّرْقَسُطِي، الرجال من النساء ومكرهنّ وخدعتهنّ:

يخدعك السلمُ والسلامُ وكم غرّتك يوماً سلمى بذي سلم

(المصدر نفسه: ٢٣٧)

لا يحدّثك هند و زينب و الرباب

(المصدر نفسه: ٢٩٦)

ما غرّنتي إلّا فتى ماجدٌ إن غرّت الكاعب والمعصرُ

(المصدر نفسه: ٣٦٠)

وأمّ عمرو فاحذرن من كيدها ما كنتَ ذا مرطٍ وذا غمرٍ

(المصدر نفسه: ٩٣)

٥.١.١.٦ إستدعاء شخصيات نسائية مشهورة

يستدعي السرقسطي شخصيات نسائية من ماضي حضارة العرب القديمة ووظفهنّ بأسمائهنّ أو القابهنّ أو كنيتهنّ وهذا يدلّ على المعرفة الوافية عند السرقسطي بالأدب العربي المشرقيّ ويثبت أنّه مثقف بثقافة المشرق العربيّ.

الدينيّة: جاء في حوار الشيخ سائب بن تمام مع الرجل الفاطمي (الشيوعي):

«يا من له المنزل العلى ومن أبوه الرضيّ علىّ
أنتم لتلهوى قوام وأنتم للورى حليّ
فخرًا سليل البتول فخرًا فلا عديل ولا كفيّ»

والبتول هي السيدة فاطمة الزهراء (س) بنت محمد النبيّ (ص) لانقطاعها عن نساء أهل زمامها أو لانقطاعها عن الدنيا إلى الله عزّ وجلّ (المصدر نفسه: ٢٥٢).

«وقال لعن الله فرعون ورحم آسية؛ لقد جمع بهما بين ضدّين وألف بين ندين وربّ صالح مُنى بطالح»: «آسية» بنت مزاحم وهي امرأة فرعون والمراد بـ«طالح» هو امرأة صالح النبيّ (ع) (المصدر نفسه: ٣٠٤).

الأدبية: ولا ينسى السرقسطي في نقده للشعراء أن يذكر الشواعر العرييات البارزات. فنراه يقول في «مقامة الشعراء»:

«فقلتُ: علقمةُ الفحل: فقال: عنسٌ ولله أمّ جُنْدب، فلقد رمته بأمّ جُنْدب، حكمتُ، فسدتُ علائقها وأحكمتُ ولم ترض بالبغاة» (المصدر نفسه: ٢٦٦).

«الخنزاعيّ ابن جمعة: ذو الصبابة والدمعة ... ملكتُ عزّة زمامه ومحفظت ذمامه»،
عزة: هي صاحبة كُثير الشاعر وقيل إنّها كانت على جانب من المعرفة بالأدب والشعر
(المصدر نفسه: ٢٧٠).

«ما رأيك في الخنساء: تماضّر ما تماضّر، وجه من الإحسان ناضرٌ وبادٍ من الفصاحة
حاضرٌ، ورقاء صادحة، ثمّ ليلي وما ليلي حسبك من خادعة حجّاج من القول والفجاج»،
خنساء هي أشهر شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام وليلي: شاعرة مجيدة اشتهرت مع
صاحبها «توبة» ولها فيه مرثية بليغة (المصدر نفسه: ٢٧١).

المعشوقات: قصص العشاق كانت زادا ثقافياً تتمتع به الأندلسيون ورغبوا فيها:

«وكنت أشوق إلى أخبار الهند من قيس إلى ليلي ومن بشر إلى هند»، وقيس: لعله
قيس بن معاذ المعروف بابن الملوّح العامريّ (توفي عام ٥٦٨.ق/ ٦٨٨م) وكان شاعراً
اشتهر بحبّه لليلي بنت سعد العامرية (المصدر نفسه: ٥٧).

«فراجعتها بعد التطلق وقابلتُ عبوسها بوجه طليق، فنافرت أوى نفار. فتذكرتُ
بنفارها نور أبي تمام ونوار همام...» همام: هو همام بن غالب التميمي (توفي ٥١٠.ق)
الشهير بالفرزدق. النوار ابنة عمّ الشاعر. تزوّجها بحيلة دنيئة ثمّ ندم على طلاقها
(المصدر نفسه: ١٨٩).

«إذا ما المال لم يُسعى فما غيلان من مَيّ»

أبوالحارث غيلان بن عقبة، المعروف بذي الرمة، أحد المبرزين من شعراء العصر
الأمويّ وإشتهر بحبه «ميّة» وهي «ميّة» بنت مقاتل، عشقها والرمة قال فيها كثيراً من
شعره (المصدر نفسه: ٢٣٠).

في «مقامة الشعراء»: «فقلتُ فالخزوميّ أبو الخطاب: تشاغل بسهيل وثرياه وربابه.
فقصر عن مدى الفحول». سهيل: سهيل بن عبدالرحمن بن عوف وثريا: ابنة علي بن
عبدالله بن الحارث وكان عمر بن أبي ربيعة يتغزل بها ورباب: إحدى النساء التي أنشد
فيهنّ عمر بن أبي ربيعة أشعاره الغزلية (المصدر نفسه: ٢٦٩).

٦.١.١.٦ التغزل بالنساء والمعشوق

حوّت أكثر من مقامة من المقامات اللزومية معاني الحبّ والغزل وتحدّثت عن لواعج الحب وآثاره ومعاناة العاشق الولهان من الحبيبة ومنها:

خيال، أطف لنائم وليد وما بالعزوم ولا بالجليد
فهيها هيهات إلّا النوى وألّا بالغرام بأمّ وليد

(المصدر نفسه: ١١٣)

يا ليت شعري والمنى ضلّة هل علمت نعيم بأشواق
وهل شكت بعدي حرّ الجوى أم قد وقاها سلوة واقسي؟

(المصدر نفسه: ٢٠٨)

ذكرتُك يا ليلى إذا القوم هجّد وقد غفلت عنك العيون المواجه

(المصدر نفسه: ٤٣٧)

٧.١.١.٦ التناص مع القرآن الكريم والحديث النبويّ

القرآن الكريم والحديث النبويّ هما مصادر السرّسطنيّ. مرجعيّاهما الدينية التي عكست ثقافة واسعة لديه مثل: «تمزقتم في البلاد مزقاً وسلبتم عن الطريف والتلبد وشغلتم عن الصاحبة والأولاد» يقتبس من بعض لفظ الآية الكريمة: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا» (الجن: ٣) (المصدر نفسه: ١٣١). «ولا تغررك بريق خضرهما الدمن». يقتبس من حديث النبيّ (ص): «إياكم وخضراء الدمن. قيل: وماذا يا رسول الله؟. قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» (المصدر نفسه: ٤٤٦) ويجذّر الرجال مرّة أخرى من جانب النساء.

٨.١.١.٦ الإشارة إلى الجوانب الاجتماعية في المجتمع الأندلسيّ مثل

زواج ابن العمّ وابنة العمّ: «هذا ابن عمّي وكانت له ابنة عمّ يهواها وتهواه وربّما غشى مثواها، فأحسّ بذلك أهلها، فخالطه مسّ وجنون...» (المصدر نفسه: ١١٢).
«كنتُ علّقتُ بابنة عمّي وكانت وفقّي وهمّي وكان الحُسن قد كساها جلبابه ورفع لها العزّ قبايه» (المصدر نفسه: ٢٠٧).

«وَأُنْسَتِكَ ابْنَةَ عَمِّكَ وَلَقَدْ احْتَرَمْتَ عَلَيْهَا الْبَارِحَةَ، فَهَزَّتْهَا الْبِرَاعَةَ وَالنَّبْلَ وَغَنَّتْ بِشَعْرِ
لَمْ تَسْمَعِهِ مِنْهَا قَبْلَ» (المصدر نفسه: ٤٢٦).

من حقّ المرأة الأندلسية (الجواري) أن تعشق وتصرح بعشقها: ففي وصف فتى
يقول السَّرْقَسُطِيُّ: «طالما ركب السرير (الملك والعزة) ولبس الحرير... صَبَّتْ إِلَيْهِ
الكعاب (الجارية نهد ثديها)» (المصدر نفسه: ١٨).

كان من حقّ المرأة أن تراسل بمن تحبّه: وهذا الجانب الاجتماعي لم يكن موجوداً
بشكل مباشر في الشرق العربي بالنسبة إلى المغرب العربي:

نرى هذا الأمر واضحاً في المقامة التاسعة: «حَتَّى طَلَعَتْ عَلَيَّ كَمَا طَلَعَ الْبَشِيرُ، تُغْمَزُ
إِلَيَّ وَتَشِيرُ وَفِي يَدِهَا رَقْعَةٌ فِيهَا:

يا هائماً بالدلال والخفر الصقتَ حدّ العزيز بالعفر
إياك ذنب الهوى وزلّته فليس ذنب الهوى بمغفر...
ولكنّ لعلّ جواباً عن هذه الرقعة فكتبت:

من رام صيد السوانس النُفُورُ لم يخش حدّ الظي ولا الشُفُورُ و...»

(المصدر نفسه: ٩١)

وفي المقامة الثانية والعشرين: «فمازلتُ تتمتعني منها الرسائل وتطمعني فيها الوسائل
وتقرّبها إلى الأمانى ويجيبي بها البرق اليماني» (المصدر نفسه: ٢٠٨).

— كان الأب صاحب الرأى الأوّل والأخير في زواج ابنته (في المرأة الحرّة لا
الجارية): «كنتُ علقْتُ بِابْنَةِ عَمِّي وَكَانَتْ وَفْقِي وَهَمِّي وَقَدْ كَانَ وَعْدِي بِهَا الْعَمِّ»
(المصدر نفسه: ٢٠٧).

المظاهر السلبية لحضور المرأة في المجتمع: ومن الظواهر السلبية التي تناولها السَّرْقَسُطِيُّ
في مقاماته:

— ظاهرة الجوارى والرقيق التي انتعشت وظهرت في بلاد الأندلس. فراح يقول السَّرْقَسُطِيُّ،
على لسان بطله «أبي حبيب السدوسي»: «فإني عرضت اليوم جارية (ذاهبة في العقول)

جارية رائعة الجمال باهرة الكمال، باعها أمس بائع وقد راعه اليوم من فوقها رائع، فشكا إليّ بوجده وخرج عن ثروته ووجده» (المصدر نفسه: ٢١٩).

- كثرة الفساد ومخالطة النساء والرجال بين المسلمين: «فسيلتُ من تلك الجارية: بالله إلّا ما عرفتني بالكئيّة، فقالت: أمّ عمرو، ليس لي عمرو وكم صاحبت في هذا الشان من زيدٍ ومن عمرٍ. فسرّنا حتّى تعين لها منزلي فقلت أقيمي إن شئت أو أنزلي فقالت: سأغيب عنك بقيّة يومي لأوفى نذر صومي» (المصدر نفسه: ٨٩).

- شيوع شرب الخمر في دير النصارى والحوانيت وخدمة الجوّاري هناك ويبدو أنّ هذه الخمارات كانت شائعة ومنتشرة، وقد أصبحت بؤرة للفساد ونشر الرذيلة: «صدعت من وجهها بصباح، فاهلّت ورحت وأقسمت بالمسيح فقالت لي: أما ترى كل نوع إلى نوعه، فاختر ما تريد» (المصدر نفسه: ١٩١). «سرّ إلى ذلك الناووس (مقابر النصارى)، هناك الدُمى كالبيض الحسان، تكلمك غير لسان ثم صار بي إلى مجلس كالبحاد وجوار يتوقدن توقد النجوم ويتراسين من الكؤوس بالرحوم وبقيت من مداعبتهنّ ومغازلتهنّ» (المصدر نفسه: ٣٩٣).

- احتيال الأب مع البنت: ومن هنا يمكن اعتبار الاحتيال في المقامة وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها المؤلف كي يصل في النهاية إلى الصورة التي يريد أن يوصلها إلى أفراد مجتمعه سواء كانت تلك الرسالة دعوة إلى رفض صور معينة في مجتمعه أولفت الأنظار إلى مزاولة النقد الاجتماعي؛ ولنضرب مثلاً على احتيال لآبد من ذكر المقامة التي يقدم «شيخ أبو حبيب» فيها إبنته للبيع كأمة، وعندما يتمّ البيع ويقبض ثمنها، يرفض الحاكم الاعتراف بصحة البيع لمرأة حرة. وفي مناسبة أخرى يغري أبو حبيب، السائب الذي إنقاه في الطريق بالتظاهر بحبّ إبنته حباً جنونياً ولكنّه غير قادر على الزواج منها لافتقاره إلى المال. فيقوم السائب، بدوره خير قيام، حتى إنّ جمع مالاً ممن رأوا حاله ورأفوا به ولكنّ ما أن حصل أبو حبيب على المال حتى اختفى بالمال مخلفاً السائب وراءه وجاء هذا في المقامة الثانية عشرة والرابعة والعشرين (المصدر نفسه: ١١٠، ٢٢١).

٩.١.١.٦ دور المرأة في الصور البياني

استخدم السرقسطي الظواهر السماوية في تراكيبه الشعرية وخلق صورة جميلة خاصة

فيما يتعلق بالنجوم، مثل الثريا التي هي معشوقة وبهرام الذي هو العاشق:

فالثريا تهاب منه (بهرام) رقيباً طال منه على الزمان جوارُ
وقدما دعا الثريا سهيلاً غير أنّ الثريا عتته نوار

ولقد شَفَّت السُّهّا بمواها فهو همّامها وتلك النوارُ السُّهّا:
وكأنّ النجوم سرب عذارى طُفْنَ طوف المها وأنت دوارُ كوكبٍ خفيّ
هجرت أختها العبور فامست وهي ولهي تحنّ الظوار يمتحن الناس به
وتشكّت أمّ النجوم فجاءت وحديث الشّعريّ حديث سوارٍ أبصاره/ العبور:
هي من الجوزاء نيرة، سميت العبور لإثنا عبّرت الحجر/ الظوار النوق التي تعطف على ولد
غيرها/ الشّعريّ: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء ويكون طلوعه في شدة الحرّ/ أمّ النجوم:
القمر (المصدر نفسه: ٢٩٤).

«لما سروتُ سربال الشبابَ ونضوتُ نضرة ذلك الجلباب» (المصدر نفسه: ١٨١)
«والليل قد شابت نواصيه واحلوك جلابيه» (المصدر نفسه: ٢٣٥). «المرقد قد وليّ شبابه
وتقلص جلابيه» (المصدر نفسه: ٣٠٣). «توفّرت أسباب الوفر وفاحت بعد تنتها أمّ دفر»
(الدنيا) (المصدر نفسه: ٣١١). «دنت أمّ لعاب للغروب»: الشمس (المصدر نفسه: ٤٨٤).
اطلاق صفات النساء على الفرس العتيق: «فتعوضتُ في بعض الأوقات من الحسان
الرعابيب (ج رعبوبة وهي الجارية البيضاء الحسنة)، عين كمرآة الصنّاع بمحجرها من
القنّاع» والصنّاع: المرأة رقيقة اليدين، حاذقة بالعمل (المصدر نفسه: ٣١٨).

٢.٦ مقامات الوهراني

«الشيخ رُكن الدين الوهراني (القرن السادس) أحد رجال الأدب وأحد الفضلاء الطرفاء المغريين
المنسيين. وُلد في مدينة «وهران». قدم الوهراني من بلاده إلى مصر في أيام صلاح الدين وقتّه
هو صناعة الإنشاء، فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الإصبهاني الكاتب؛
علم إنّه ليس من طبقتهم، فعدل عن طريق الجدلّ وسلك طريق الهزل، وبقي يعيش على هامش
الحياة وتسكع زما قبل أن ينتبه بعضهم إلى علمه وفقهه» (المصدّق، <http://azaheer.org>).

«لم يترك الوهراني، الكثير من المؤلفات بل لقد جمعت المقامات والمنامات والرسائل
وأكثر ما اشتهر هي «مناماته» المعرّفة في اللامعقول وعبثه السخيف برحالات عصره في
المشرق والمغرب وخاصة من أولئك الذين تحاشوه. فصبّ جام غضبه عليهم وعلى

أعوانهم. الوهراني في كلّ ما كتب، كان يسخر بمرارة وجرأة مدهشة من الناس والزمان والظواهر الفاسدة ونفسه في تصوير كاريكاتوريّ فاضح للعورات النفسية والجسمية والعقلية ولقد نقل قول أحدهم في حقّه يأنّه رغم تفاهته (يتمكّث ويتمشعر) أيّ يكتب النثر ويقول الشعر. تولّى الخطابة بـ «داريا» وهي قرية على باب دمشق في «الغوط». وتوفيّ في سنة خمس وسبعين وخمسمائة (٥٧٥ هـ.ق) بداريا» (المصدر نفسه).

وللوهراني ثلاث مقامات عنونها: «المقامة البغدادية» وهي في وصف الدول المغربية و«مقامة شمس الخلافة» وهي تصوير انتقاديّ من عصر المؤلف و«مقامة الصقلية» الذي يتكلّم فيها الوهراني عن معاصريه من الرجال (ذكاوتى قراقولو، ١٣٦٤: ٧٣). يمزج في كتابته بين أسلوب الرسائل في الديباجة ومراعاة الألقاب، على سبيل السخرية والتهكم، وأسلوب الخطابة في الجدل والاحتجاج بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر والأمثال في سياقات مناسبة (المصدّق، <http://azaheer.org>).

في «المقامة البغدادية» يشبه الوهراني، الدولة العصرية في البغداد بشخصيات من النساء حينما يقول: «قال: فما تقول في الدولة العصرية والخلفاء العلوية؟: فقلت عجوز محتالة، طفلة محتالة وكاعب فتانة وإمرأة عاهرة» (الوهراني، ١٩٩٨: ٢٢). فينسب عدّة صفات سلبية لبغداد وبالتالي للنساء وهي الخدعة والكبر والفتان والعاهرة الفاجرة وفي «المقامة الصقلية» يشبه الوهراني مدينة صقلية بمعشوقة يعشقها فيقول: «دخلت مدينة صقلية في الأيام المتولّية، فعشقها شيطاني، فأقامتها مقام أوطاني» (المصدر نفسه: ٢٣٧).

مع الوصف، من أجمل وأفضل مقامات الوهراني هي مقامة «شمس الخلافة» وهي قصة عجوز مغربية كانت مكلفة بتربية خمسين فتاة ولها غرفة للإجارة. في يوم جاءها شيخ اسمه «أبو الخرا» يطلب غرفة للكرءاء. قررت العجوز أن تصنع منه فقيهاً. فتزوجته ثم قامت على تعليمه الفقه، ليكون بمظهر الفقهاء ولكنّه فشل في مهنته هذه، فاشتغل في مهنة «العونية»، التي ربّما كانت مهنة غير شريفة تعتمد على القوة البدنية والاعتداء على الناس. فنجح فيها أيّما نجاح. فكثرت بضاعته من العوانية وازدادت حساسته وصار ذا غلمان وحاشية ... فتغيّر على زوجته ويخاطبها جيّافة

قلنا احتلّت المرأة في الأندلس منزلة عظيمة ونالت حظاً وافراً من التعليم ونبغت في العلوم والآداب والفنون وكان على النساء تربية بنات الأمراء. ففي هذه المقامة يمكن أن نرى المرأة الأندلسية في موقعها الحقيقية وهي نشيطة في الأدب أو في الحقل التعليم. فيعكس الوهْرانيّ دور المرأة في المجتمع حينما يعكس الدور التربويّ الذي تقوم به المرأة الأندلسية واهتمامها بتعليم البنات والنساء في المجتمع.

عدّ الوهْرانيّ في هذه المقامة صفات إيجابية للعجوز مثلاً: هي معلّمة ومثقّفة وعفيفة ومشفقّة وخبيرة إلى طرق الخطابة. تتعلّم البنات الغزل وتجنّبهنّ المجون والهزل وقد اشتهرت بالرفق والإناة. مع ذلك؛ أختيار العجوز التي لم يتزوَّج وهي تقترح للشيخ أن يتزوَّجها يعطي لها دوراً سلبياً رغم أنّ هدفها مساعدة «الشيخ ابو الخرا» في أن يصبح فقيهاً.

في هذه المقامة خلافاً للمقامات السرقسطي والأزدي، للمرأة دور رئيسي وهي شخصية نشيطة لا منفعة. الشيخ هو تحت أمر زوجته وهي ترغمه أن يفعل أفعالاً لا يسترضيه. مثلاً ضغطت عليه أن يصبح فقيهاً وخطيباً. نستنبط هذا الأمر من النص: «فقال (الراوى): أعلم إنّه لما اجتمعت العجوز على تعليمه، ورده إلى المدرسة ... بات ليلته على الجمر. فلما أصبح قال لها: يا هذه إعلمي، أنّي كنت في بلدي إسكافاً وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافاً، فكيف لي بالمدارس وأنا كالطلل الدارس؟ ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العُزير؟ والله ما أفرق بين الحروف وبين الخروف، فقالت: أنا أعلمك العلم كلّه إلا أقله ... فقال لها: يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً وأنّي أخاف أن يقتلوني صفعاً، فدعيني من اقتحامك وأفحامك ...» (الوهْراني، ١٩٩٨: ٩٩).

أمّا الرجل في هذه المقامة شخصية منفعة ومتغيرة لأنّه بعد أن يكسب أموالاً كثيرة يصير بخيلاً ويشتم زوجته: «ولما ارتفعت الهمة وامتنت الذمة تعبّر على زوجته بعد أن كان يفديها ... ولقد رأيتهما يوماً يشالقه وتشالقه ويخالفه ويخالفه ويقول لها: ألسنت تعلمين يا جيّافة أنّي لقيت من أجلك زوج العلافّة. فلعن الله الأشفار والأظفار وما تحويه الأخصار» (المصدر نفسه: ١٠٢). ويصور الوهْرانيّ جفاء الرجل لزوجته لأنّ الرجل بعد أن حسنت ظروفه وحالته المعيشة لا يحسن التعامل والتصرف مع إمرأته: «ضاق بالعلم باعه، ونفرت منه

طباعه، وعاد إلى ما يعرفه من الأخلاق الذميمة والسعي بالنميمة حتى طال على القوم أمره، وإنتهى فيهم عذره وعلم الشيخ من شيمته الرديّة وأخلاقه الدنيّة أنّه لا يصلح الّا للعوانية، فأشار به في بعض الأعمال، فأخرج عاملاً من العمّال، فكثرت عنده بضاعته وازدادت دياصته ورقاعته وصار بالأعوان والحاشية والغلمان والفاشية» (المصدر نفسه).

٣.٦ مقامة العيد لعبدالله الأزدي

«الشاعر الأديب الغرناطيّ أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله الأزدي (توفي ٥٧٥٠هـ.ق)، المعروف بإبن المربع وهو من أهالي مدينة «بلش^٧» المجاورة لمدينة «المالقة». له «مقامة العيد» خاطب بها «الأمير أبا سعيد بن نصر» يستجديه أضحية بمناسبة العيد» (العبادي، ٥١٣٧٣هـ.ق: ١٦٣).

تعالج هذه المقامة ظاهرة الفقر والحرمات وتجري الحكاية على لسان الراوي «الشاعر الأيادي» الذي يحدث عن نفسه في أيام عيد الأضحى. تشكل شخصية «الشاعر الأيادي» — وهو رجل متسوّل من بني ساسان — وإمرأته محور العمل في هذه المقامة وتوجد شخصيات فرعية مثل: القصاب والحمال والشرطيّ والعجوز والأطفال والناس في السوق. تجري الأحداث في طوال ثلاثة أيام وليال. أمّا أمكنة الأحداث فأربعة: الغرناطة ودار الشاعر الأيادي ودكان القصاب والسوق.

ويبدأ القصة من لحظة دخول الشاعر الأيادي إلى بيته من أجل طعام ولكنّ حينما يصل إلى بيته تقول زوجته: لم جئت ولم أتيت؟ ما حضرت اليوم طعاماً. عيد الأضحى قريب وأنت لا تفكر في إعداد تيس. إذهب وأحضر تيساً. فيرغم هو بالخروج من البيت. فيجول في الشوارع ثلاثة أيام. في اليوم الثالث، يمرّ بقصاب في مجزرة، الذي شمر إلى ذبح عتر سمين ... فيشتري العتر من القصاب نسيّة. لكنّ في طريق البيت يفرّ العتر ويجول في السوق ويجرح الناس. فشرطيّ قبض عليه وأرغمه إلى تعويض الخسارة ... في النهاية يذهب إلى البيت مع العتر؛ لكنّ حينما ترى إمرأته العتر تقول: لا خلّ ولا زيت! رجعت

بمعزل. من قالك أشره؟! متى تفرح زوجتك والعتز أضحيتك؟! أخرج عني يا لكع، يا قليل التحصيل! أدلك على كبش سمين عند مولانا الذي أعزّ المسلمين بنعمته وأذلّ المشركين بنقمته... وهكذا يستكدي الأزدّي خروف العيد من الأمير ليرضى زوجته.

قدّم المؤلف شخصية المرأة من خلال حوارها من زوجته فهي: ربّة البيت، حاسدة إلى جاريتها، كثير التوقّع والنقّاق. هي إمراة تفرض على زوجها واجباتاً ومسؤوليات جسيمة. فضايق الرجل ذرعاً بإمراة وما تفرضه عليه من المسؤوليات. هذه المرأة من الأحرار، لا يصفها المولّف بصفات الإيجابية وبصورها إمراة، تخلّ هدوء الرجل والأسرة. ويهمل الأزدّي دور المرأة كالزوجة الوفيّة والصبور التي تصوم طوال السنة من أجل فقر زوجها ولا يعبر الأزدّي شيئاً عن المرأة باعتبارها الامّ الحنون لبناتها وإنها ولا يبرز الرجل عاطفته إلى إمراة ويتجول بين الشوارع فقط... يأتي إلى البيت حتى يأكل ويشبع. كأن إمراة طبّاخ فقط وهذا يعكس وضعية أفق رؤية الرجل إلى إمراة كخدومة.

ورؤية الرجل المتسوّل إلى زوجته رؤية سلبية مع أنّه يخاطبها بـ«ربّة البيت». لأنّه حينما لا تطيعه إمراة، يلعنّها ويعدها من بعض أعدائه. فتلعن الزوجة زوجها أيضاً وتشتكي من إلزامه الصوم سنةً من أجل فقرهم. فيصور المولّف الزوجة كذئب يفرّ منه زوجها كنفار الغنم من الذئب وهكذا يوطئ شخصية المرأة ويمحو الوجوه الموضوعية لشخصية المرأة ويرسم صورة اللاواقعية من المرأة.

يجدر بالذكر أنّ العقدة تحلّ على يد الزوجة حينما لا يستطيع الرجل بحلّها، لأنّ المقامة إنتهت بتوجيه الزوجة إياه بأنّه سيجد الأضحية عند الأمير. ورغم أنّ دور المرأة كان سلبياً لكنّه يسبّب نشاط الرجل من أجل تحقيق مطالبه زوجته.

وفي النهاية نقول أنّ الأزدّي يهجو المرأة بالعيوب الخلقية ولعلّه يريد أن تفيّد مقامته الفرد والجماعة. فالأمراض النفسية والأخلاقية يمكن أن تعالج عن طريق الهجاء. فهي هجاء مضحك وسخرية من البلايا الاجتماعية وتوجيه النظر إلى إصلاحها وإزالة أسبابها. فيمكن القول أنّ هذه المقامة تشتمل على نقد أخلاقي لأخلاقيات النساء ونقد اجتماعي لوجود الحرمان وشيوع التسوّل والكدية.

«والمقامة فضلاً عن طرافتها كقطعة أدبية، لها قيمتها التاريخية لكونها صورة جزئية للمجتمع الغرناطي ففي هذه المقامة نجد أشكالاً من الناس بميزاتهم وأشكالهم وأخلاقهم النفسية والاجتماعية والزوجة وكثرة مطالبها والعجوز وتطفلها والبائع ووضاعته والقصاب الذي يسجل في دكانه عقود البيع والشراء بالتقسيط والمحاسب الذي يشرف من قبل الحكومة على الأسواق و...» (العبادي، ١٣٧٣هـ.ق: ١٦٧) فالمقامة بعبارة أخرى تعطينا صورة من صور الحياة الشعبية الغرناطية.

٧. نقد و تحليل دور المرأة في المقامات

لدراسة مكانة المرأة في الأدب وخاصة في المقامات، في البداية؛ يجب تفكيك الدور الذي تمثله المرأة في آية مقامة من المقامات المدروسة مثل دور المرأة كالأُمّ والزوجة والبنات والمعشوقة والعجوز والأمة والمرأة الحرّة عامةً والجواري خاصةً، لأنهنّ حظين بدور أكثر في حكايات المقامات إذ «قد كانت الجواري في الفنّ الأدبي أنشط من الحرائر ويعود ذلك إلى أنّ الناس كانوا يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري ويجربون الحرّة ويشدّون في تحجيبها ولكنّ الجارية شأنها غير ذلك. فهو لا يعيّرُها كما يعيّرُ بقرينته الحرّة. ثمّ أنّ الجارية سافرة إلى حدّ بعيد بحكم إنّها في كل وقت، عُرضة، لأنّ تُباع وتُشترى وهي تقتضي للرجل حوائجه وإذا أراد أحد من العامة أن يستمع لغنائهنّ، اللائي يغذين ميله إلى السماع. أمّا الحرائر فلا يقنع عليهنّ إلّا نظر أقاربهنّ. لذلك كان طبيعياً أنّ الأدباء والشعراء يغذون أدبهم بالجواري أكثر ممّا يغذونها بالحرائر» (أمين، ٢٠٠٨: ١ / ٨٦).

– لا يصف النساء توصيفاً واضحاً وصفاتها كليّةً ولهذا لا يتكوّن تصوير واضح في ذهن القارئ. وأيضاً لا تصف المرأة نفسها بل يصور المؤلف شخصية المرأة بواسطة الرواي الذي هو من الرجال. وهذا الأمر يوّدّي إلى أن لا يكون كتاب المقامات ناجحاً في خلق الصوت والفعل النسائي الذي يدلّ على نفس المرأة وذاتيتها.

– أسماء النساء ليست اسماً علماً؛ بل تُطلق عليهنّ كلمات عامة مثل: ربّة البيت وأُمّ وابنة العم وعجوزٌ وجارية وحسنة، وبين أكثر من ستين مقامة التي كانت في محلّ الدراسة؛ توجد

خمسة عشر شخصية نسائية؛ يشير إلى أسماء بعض النساء من خلال كنيتهنّ مثل أمّ عمرو وأمّ وليد وأسمائهنّ كـ «هند ونعم ولىلى». فيبدو أنّ تصرفات وأقوال النساء في المقامات كانت أكثر موضع إهتمام صاحب المقامات المدروسة بنسبة أسمائهنّ. لعلّ هدف كتاب المقامات من هذا الأمر هو أن يبنوا شخصيات عامّة من النساء ليطلق هذه الشخصيات النسائية على كلّ نساء في أيّ مكان أو يرجع هذا الأمر إلى البيئة الاجتماعية و الثقافية آنذاك إذ كان ذكر أسماء النساء خاصة من الأحرار يعدّ عملاً قبيحاً ومكروهاً.

– الشخصيات النسائية التي جاءت في المقامات المدروسة، أكثرها شخصيات سلبية والمرأة تستطيع أن تلعب أدواراً مختلفة بالنسبة لوظائفها المختلفة ولكنّ لم تكن المرأة تحظى بشأن أو مكانة تستحقّ التقدير وإقتصرت دورها على أن تكون جارية حسناء وعجوز منسأة وزوجة خبيثة وسيئة التصرف وبناتاً ذات الخدعة. لا يُعطى لها دور الزوجة أو الأمّ الحنون والوفى والشفيق أو البنت الكريمة العفيفة.

– لا يتعظّف على الشخصيات النسائية الموجودة في المقامات ويشار إليها من بعيد ولا يعالج المؤلف الشخصيات النسائية معالجة عميقة ويعطى لها دوراً هامشياً ساذجاً ومكرراً.

– شخصية المرأة في غالبية الأحيان، شخصية منفصلة وذو بُعد واحد أيّ لا تتغيّر من بداية المقامة إلى نهايتها ولكنّ الرجل ذو شخصية فعالة وذو التأثير على الشخصيات الأخرى وعلى حوادث الحكاية.

– للمرأة دور إيجابي فقط حينما هو محبوبة ومعشوقة وحينما هي امرأة هي ذوالعذر والإنانية ودون الوفاء والمعجبة بنفسها. فرغم أنّ الرجال يشتكون الهجر ويمدحون حبيبتهم ويصفونها بأجمل الصفات، لكنّهم حينما يصفون إمرأهم يصفونها وصفاً سلبياً. يمكن أن نستنتج أنّ المرأة حينما تكون معشوقة توصف وصفاً إيجابياً وحينما تكون زوجة الرجل لها صفات سلبية.

وهناك نشير إلى أسباب الرؤية السلبية للمرأة في المقامات ومنها:

١. أسباب عقائدية: علينا أن نعترف أنّ المجتمع يؤثر على الأديب والكاتب وهما إبننا بيئته. فكّتاب المقامات ايضاً قد كانوا متأثرين من المجتمع والعادات والعقائد السارية فيه. فمن الطبيعيّ ألاّ يعكسوا الحقيقية وأن يعكسوا العقائد الرائجة.

٢. عصبية الرجال: الرجال إضافةً على تفوقهم جسمياً مادياً ومكانتهم الاجتماعية وتمكنهم الاقتصادي، كانوا متمتعين من موهبة التعلّم والدراسة ومن حيث إنهم كانوا أكثر المتعلّمين والمثقفين في المجتمع، حتى كُتب التاريخ والأدب بأيديهم (الريسوني، د.ت: ٢٥). فمن الطبيعي أن يعيّن الرجال مكانة المرأة في الأدب لأنّ لهم الخطاب المقبول المسيطر في مجال التاريخ والأدب والثقافة.

٣. أسباب اجتماعية؛ فالحياة الاجتماعية في الأندلس بالرغم من استقرارها وهدوئها، اتّسمت بالتحرّر وعدم المحافظة، فشيوع الخمر وانتشار مجالس اللهو والجون والغزل بالمذكر، كانت كلّها مجالات مألوفة بين كثير من الأندلسيين في تلك الفترة (بوفلاقة، ٢٠٠٣: ٤١) فرغم بلوغ المجتمع الإسلامي، أوج رقيه، داخلة عوامل الفساد من أجل انتشار الثروة والحواري والغلمان وذيوع الترف والانصراف إلى الشهوات ومخالطة الشعوب المختلفة واقتباس ضار من تقاليدها ووهنت أخلاق العرب القويمة التي رفعوا بها لواء سيادتهم. فضعفت روابط الأسرة بذيوع التسريّ وانحطت نظرة الرجل إلى المرأة بانتشار صناعات القيان والمغنيات والراقصات وفشت الريّة وإزداد المجتمع انحطاطاً (أبو السمود، ٥١٣٥٦.ق: ٩٧٩). «فلما تطورّ المجتمع العربي وجاء أوان ظهور القصة الاجتماعية، كانت عوامل الفساد السالفة الذكر قد اجتاحت مكانة المرأة وضربت بحجاب كشف بينها وبين المجتمع والأدب. فإستحال تطورها ورقبها وجاءت مقامات البديع التي هي الخطوة الأولى في الأدب العربي في سبيل القصة الاجتماعية، خلّت من شخصية نسائية واحدة جديرة بالذكر ولم يعرض الحريري إلّا عجزاً يسحبها أبو زيد في استجدائه» (المصدر نفسه: ٩٨١).

٤. أسباب ثقافية: من الممكن أنّ اتصال العرب الأندلسي مع نساء غير مسلمات والأجانب وأيضاً مصاهرتهم من النساء النصراني، أدّى إلى هذه الرؤية السلبية إلى النساء. وأيضاً اطلاع الأندلسيين على القصص الأجنبية التي تحكى عن خدعة النساء واستلهاهم منها.

٥. أسباب اقتصادية: شيوع الترف من أجل الازدهار الاقتصادي؛ أدّى إلى شيوع الفساد ومخالطة الرجال والنساء.

٦. يمكن أن يرجع هذا الأمر إلى نفسية الكُتّاب ولعلّهم كانوا ذا الرؤية السلبية للمرأة ويغلب عليهم التشاؤم. لكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن حياة كُتّاب المقامات المدورسة وعن المناصب التي تولّوها، أو الأفكار التي مالوا إليها لإثبات هذا السبب. وبناءً على ما قدّمنا في هذا المقال يمكن أن نقول: إننا لا نزعم أن المقامات اشتملت على كلّ المظاهر الحضارية الموجودة في المشرق والأندلس، كما أننا لا نزعم أيضاً إنَّها قدّمت صوراً واضحة أو صادقة عن المجتمع الأندلسي. فقد أهملت المقامات المرأة وهي التي وصفها الله تعالى بقوله: «أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» (الزخرف: ١٨). وكنا نتوقع أن نجد مظاهر حضارية كثيرة تتعلق بحياة المرأة ولكن لم نجد شيئاً من ذلك إلّا نادراً، وإنما وجدناها وهي فتانة مكّارة أو تخاصم زوجها في أمر أو تحتال على الأمير للنيل من عطائه. إذا فالصورة التي قدّمتها المقامات في المظاهر الحضارية لم تكن واضحة تمام الوضوح؛ كما أنّ هذه الصورة لم تكن كلّها صادقة لأنّها لم تكتب أصلاً لتؤرّخ عصرًا من العصور، بل كانت أولاً وآخرًا مضمارة للبراعة اللغوية بين الكُتّاب، سواءً في المشرق أم في الأندلس.

٨. النتيجة

١. نالت المرأة في الأندلس منزلة سامية، من أسباب هذا الأمر هو احتكاك المرأة بالشعوب الأوربية وإحتلاط عرب المجتمع الأندلسي بالبربر والتطور العلمي والثقافي. فتمتعت المرأة بنصيب وافر من الحرية مكّنتها من الإسهام في كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلوم الدينية والمجال الأدبي.
٢. إذا كان الشعر بطبيعته يعبر عن الانعكاسات العاطفية والفكرية والفلسفية ... فإنّ النثر أيضاً الوعاء الطبيعي الذي يصبّ فيه الكُتّاب القيم والنظرات. لكنّ دراسة المقامات خاصة المقامات المذكورة، أثبتت أنّ المقامات لا تلقى أضواء كاملة على دور المرأة في المجتمع ومجال الأدب والثقافة.

٣. كانت المرأة أكثر ظهوراً في مقامات السرقسطي وموضوعاته المتناولة حول المرأة هي: أوصاف النساء — إيجابية كانت أو سلبية — وألبسة النساء وأدوات الزينة للنساء واستدعاء شخصيات نسائية مشهورة: مثل فاطمة الزهراء (س) و«آسية» بنت مزاحم وهي امرأة فرعون وأمّ جندب وعزّة هي صاحبة كُثير الشاعر وخنساء ... والتغزل بالنساء والمعشوق والإشارة إلى الجوانب الاجتماعية في المجتمع الأندلسي مثل: زواج ابن العمّ وإبنة العمّ وتراسل المرأة بمن تحبّه والأب صاحب الرأي الأوّل والأخير في زواج إبنته وإلخ والمظاهر السلبية لحضور المرأة في المجتمع مثل: ظاهرة الجوّاري والرقيق التي ظهرت في بلاد الأندلس، كثرة الفساد ومخالطة النساء والرجال بين المسلمين، شيوع شرب الخمر في دير النصراري والحوانيت وخدمة الجوّاري هناك وغيرها.

٤. وللوهراني ثلاث مقامات ومن أجمل وأفضل مقاماته هي مقامة «شمس الخلافة» وهي قصّة عمّوز مغربية كانت مكلفة بتربية الفتيات. ففي هذه المقامة خلافاً لمقامات السرقسطي والأزدي؛ نرى المرأة الأندلسية في موقعها الحقيقية وهي نشيطة في الأدب أو في الحقل التعليم.

٥. في «مقامة العيد» للأزدي، خلافاً للمقامات السرقسطي والوهراني، للمرأة دور رئيسي وهي شخصية نشيطة لا منفعة. قدّم الأزدي شخصية المرأة في مظهر لا تُحمد فيه، وهي تخاصم زوجها من أجل أضحية عيد الأضحى. يهمل الكاتب، دور المرأة كالزوجة الوفيّة والصبور التي تصوم طوال السنة من أجل فقر زوجها ولا تقول شيئاً عنها باعتبارها الأمّ الحنون لبناتها و... .

٦. فنرى كتاب المقامات هم يحددون الحقائق مثل الدور الثقافي للمرأة ولا يعكسون بشكل واضح دورها الحقيقي. ويقدمون المرأة في المقامات، بصفات سلبية وتوجد أيضاً مقامات تنثني فيها المرأة لكنّ عدد هذه المقامات بالقياس إلى المقامات التي تحتوي ازدراء وإحتقار المرأة ضئيل جداً. وسبب هذا الأمر يمكن أن يعود إلى الأسباب والظروف الاقتصادية والاجتماعية وعقائدية وثقافية وتعصّب الرجال.

الهوامش

١. يقول ابن بطوطة في رحلته عن بلد «إبولاتين» وهي أوّل عمالة السودان: «... ولنسائها الجمال الفائق وهنّ أعظم شأنًا من الرجال. والنساء هنالك يكون لهنّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب. كذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبية ويدخل أحدهم داره فيجد إمراة ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك... وشأن هولاء القوم عجيب وأمرهم غريب، فإمّا رجالهم فلا غيره لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب إلى خاله ولا يرث الرجل إلاّ أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته إلاّ عند كفّار من الهنود، أمّا هولاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن» (ابن بطوطة، د.ت: ٦٧٦، ٦٧٧).
 ٢. سَرَقَسُط: الثغر الشمالي للأندلس العربي (السيوفي، ١٩٨٥: ٢١). الأَشْتَرَكُونِيّ: نسبة إلى أشتركونة؛ حصن من أعمال تطيلة في الثغر الأعلى (دائرة المعارف بزرگ اسلامي، ١٣٧٤: ١٥).
 ٣. هما في مقامة «الشعر و الشعراء» و«في النظم و النثر».
 ٤. المعصر: الجارية التي بلغت عصر شبابها.
 ٥. ← پاينده، ١٣٧٧: ٦٩.
 ٦. «المنامات»، فن شبيه بالمقامة والرسالة، فُهِجَ الوَهْرَانِيّ فيها فُهِجَ المَعْرِيّ في رسالة الغفران، في إفتعال الأحداث الأخروية عند الحشر (المصدّق: <http://azaheer.org>).
7. Velez Malag
٨. «أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»: «أَوْ جَعَلُوا اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَنْ يَنْشِئُ فِي الْحَلِيَّةِ أَيْ يَتَرَبَّى فِي الزِينَةِ وَهُوَ فِي الْمَخَاصِمَةِ وَالْمَحَاجَّةِ غَيْرُ مُبِينٍ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذَيْنِ النَّعْتَيْنِ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ بِالطَّبَعِ أَقْوَى عَاطِفَةً وَشَفِيقَةً وَمَنْ أَوْضَحَ مَظَاهِرَ قُوَّةِ عَوَاطِفِهَا، تَعَلَّقَهَا الشَّدِيدُ بِالْحَلِيَّةِ وَالزِينَةِ وَضَعْفَهَا فِي تَقْرِيرِ الْحُجَّةِ» (الطباطبائي، ١٩٩٧: ٩١).

المصادر

القرآن الكريم.

ابن بطوطة (د.ت). رحلة ابن بطوطة، بيروت: دار صادر.

أبو السمود، فخرى (٥١٣٥٦.ق). «اثر المرأة في الأديين العربي والإنجليزي»، الرسالة، العدد ٢٠٦.

١١٢ دراسة الدور الحضاري للمرأة الأندلسية ونقد كفيّة انعكاسه في المقامات ...

- أمين، أحمد (٢٠٠٨م / ١٤٢٩هـ.ق). ضحى الإسلام، بيروت: المكتبة العصرية.
بوفلافة، سعد (٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ.ق). الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، لبنان: دارالفكر.
باينده، ابوالقاسم (١٣٧٧هـ.ش). نهج الفصاحة، كلمات قصار حضرت رسول (ص)، طهران: جاويدان.
حمزة عباس، فائزة (٢٠٠٥م). «صور من إسهامات المرأة الأندلسية في الحياة الثقافية في عصر ملوك الطوائف»، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ٣، العدد ٣.
ذكاوتي قراگزلو، علي رضا (١٣٦٤هـ.ش). بديع الزمان همداني ومقامات نويسي، طهران: اطلاعات.
الريسوني، محمد المنتصر (د.ت). الشعر النسوي في الأندلس، بيروت: دار مكتبة الحياة.
السرقسطي، أبوظاهر محمد بن يوسف (٢٠٠٦م). المقامات اللزومية، محقق: حسن الوراكلي وعبدالملك السعدي، إربد — الأردن: عالم الكتب الحديث.
السيوفي، مصطفى محمد أحمد علي (١٤٠٥ / ١٩٨٥م). الملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، بيروت: عالم الكتب.
ضيف، شوقي (١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربي — عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف.
طاهري نيا، علي باقر وسيد مهدي مسبوق وشهلا زماني (١٣٩١هـ.ش / ٢٠١٢م). «الدور الحضاري لأبي علي القالي في الأدب الأندلسي»، إضاءات نقدية فصلية محكمة، العدد ٦.
الطباطبائي، سيد محمد حسين (١٩٩٧م). تفسير الميزان، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
العبادي، أحمد مختار (١٣٧٣هـ.ق). «مقامة العيد لأبي محمد عبدالله الأزدي»، المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد، العدد ٢.
عباس، إحسان (١٩٨١م). تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، بيروت: دار الثقافة.
عبدالكريم، محمد عبداللطيف (١٤٢٢هـ.ق). «أثر المقامات العربية في الأدبين العبري والسرياني»، المجمع العلمي العراقي، العدد ١١.
القضاة، محمد أحمد (رجب ١٤١٥، ديسمبر، كانون الاول، ١٩٩٤م). «الشاعرات الأندلسيات في عصر ملوك الطوائف»، آفاق الثقافة والتراث، السنة الثانية، العدد ٧.
مجموعه‌ای از نویسندگان (١٣٧٤هـ.ش). دائرة المعارف بزرگ اسلامی، ج ٣: ذیل ابن اشترکونی، طهران: مرکز نشر دائرة المعارف بزرگ اسلامی.
المصدّق، عبداللطيف (٢٠١٠م / ١٠/٠١/٢٠١٠م). «أخبار ركن الدين الوهّراتي»، منتديات أزاهير الأدبية، على الموقع: <http://azaheer.org/vb/showthread.php>.
الوهّراتي، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز (١٩٩٨م). منامات الوهّراتي ومقاماته و رسائله، محقق: إبراهيم شعلان و محمد نعش، ألمانيا: الجمل.